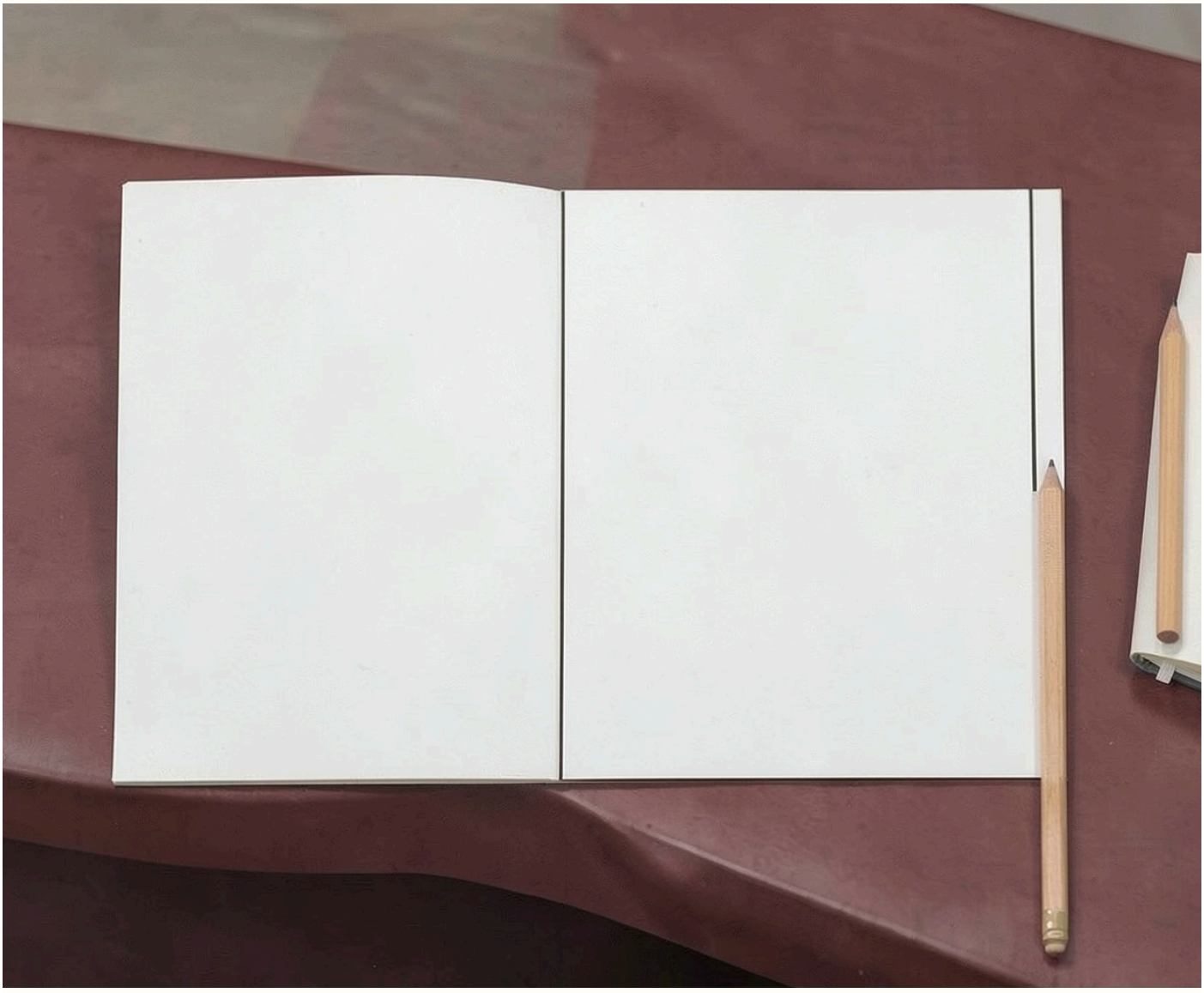
حين تنفعنا حدود السيرة



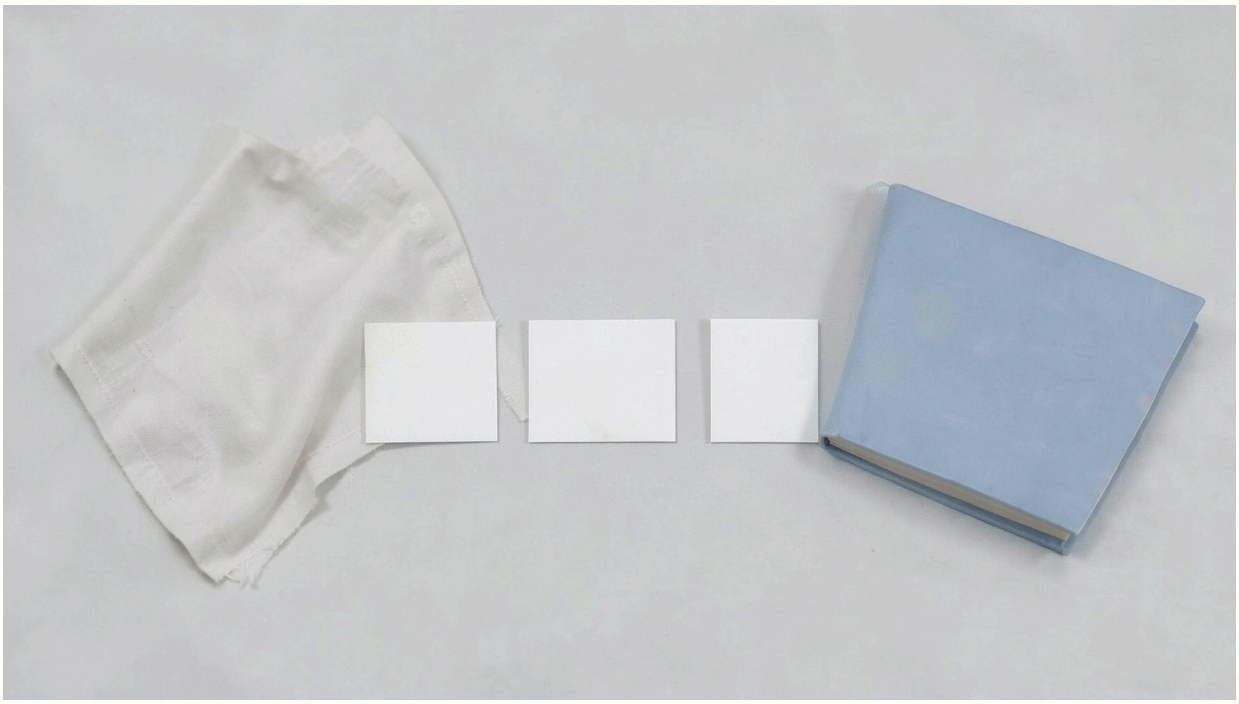
مدارج



بين أسطر السيرة مساحة يتركها الخبر من غير وصف. قد يخبرك الراوي أن رجلًا تاجر، ثم تسأل أنت عن متجره وشركائه ومقدار ربحه. تبدو هذه الأسئلة قريبة من الجملة التي قرأتها، حتى يكاد الذهن يضع أجوبتها معها في موضع واحد. وحين تعود إلى النص تجد أن بعضها جاء منك. تبدأ القراءة الدقيقة من ملاحظة هذه المسافة، ومن القدرة على إبقاء السؤال سؤالًا إلى أن تجد له شاهدًا يبين مقدار ما يمكن أن تقوله عن صاحبه.

وتزداد الحاجة إلى هذه العناية حين يكون صاحب السيرة ممن نحبهم ونقدر علمهم. نرغب في معرفة كيف عاش، وكيف أنفق وقته وماله، وكيف وصل نفعه إلى الناس. هذه الرغبة تدعونا إلى البحث، وقد تجعل تفصيلًا جميلًا أسرع إلى الذاكرة من التحفظ الذي يصحبه. فإذا حكينا ما قرأنا بعد مدة، احتجنا إلى أن نستعيد الجملة وحدودها معًا. يظل تقدير الرجل حاضرًا في قراءتنا، وتظل نسبة الخبر إليه عملًا يحتاج إلى دليل يمكن الرجوع إليه وفهم ما يدل عليه.

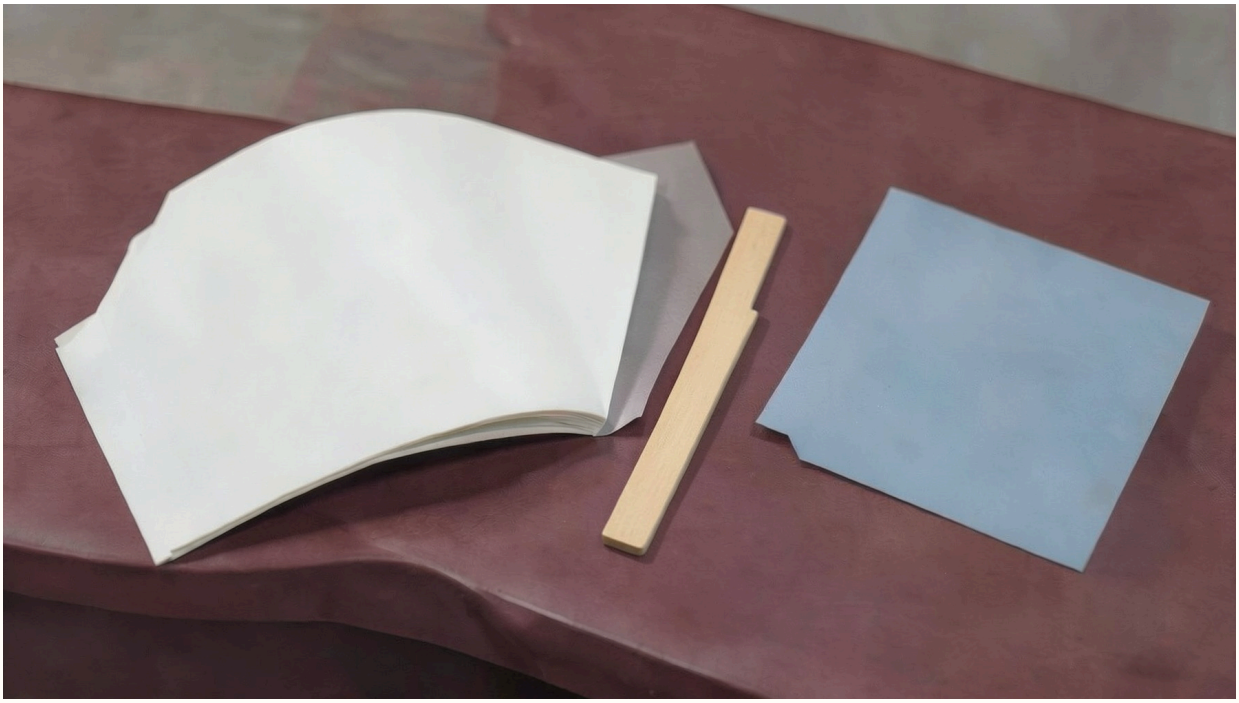
في الصفحات التي نقرؤها من سيرة عبد الله بن المبارك ترد حكاية منقولة عن التجارة والمال. سننظر في طريقة وصولها وفيما قاله ناقدها، قبل أن نحاول بناء صورة واسعة منها. وقد يثبت لنا من النص أن مؤلفًا أورد رواية، ثم يبقى تقويم تلك الرواية سؤالًا آخر. كما قد نجد اعتراضًا محددًا فنحتاج إلى فهم وجهه وحدوده. بهذا الترتيب نمضي إلى الحكاية وفي أذهاننا فرق واضح بين ما ورد في الكتاب وبين ما تسمح مادته بإثباته.



لنقرأ أولًا ما نُسب إلى ابن المبارك في صدر الحكاية. يورد تاريخ بغداد خبرًا يقول إنه كان يتجر في البز، ثم ينسب إليه ربط تجارته بخمسة أشخاص سماهم: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، ومحمد بن السماك، وابن علية. ويصف الخبر مالًا يصل منه إليهم بعد نفقة العيال والحج. هذه خلاصة لما يرويه النص، محفوظة بصيغة النسبة؛ فوجود الأسماء والتفاصيل في كتاب لا يكفي وحده للجزم بأن جميع ذلك وقع على الوجه المذكور.

وتساعدنا الخلاصة المضبوطة على اكتشاف خطأ قد يدخل من شرحنا نحن.
فالخمسة مذكورون في الحكاية بوصفهم مستفيدين من صلته، ولا تصفهم هذه الفقرة شركاء في تجارته. كما أن اتجاه العطاء في الخبر من ابن المبارك إليهم؛ فلا يجوز أن نقلبه فنجعلهم ممولي تجارته. تتغير صورة العلاقة كلها إذا استبدلنا كلمة بأخرى، مع أن الجملة الجديدة قد تبدو مقبولة لمن يقرؤها سريعًا. لذلك نقابل شرحنا بألفاظ النص، ونسأل عن كل إضافة: هل وجدناها فيه، أم استنتجناها من تصور سابق لدينا؟

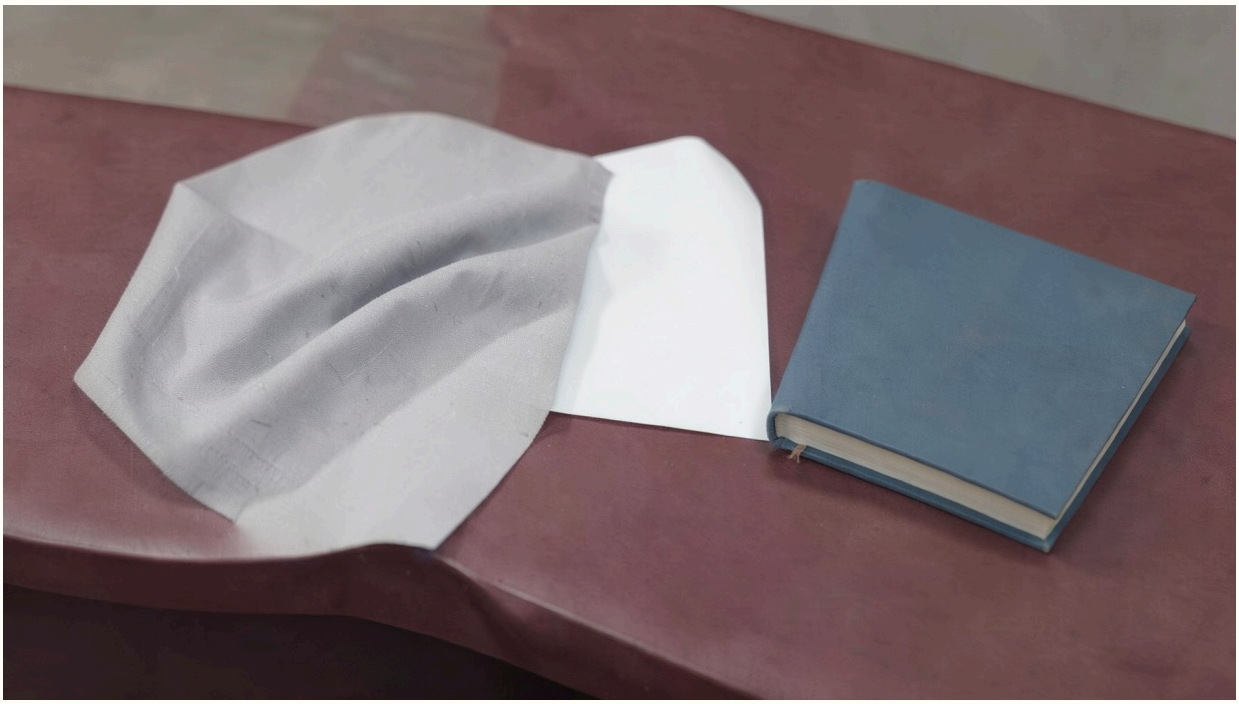
وحين نصل إلى بقية الحكاية، التي تربط الصلة بموقف من ابن علية، نتوقف عن تحويلها إلى مشهد تاريخي محسوم. فهذه هي الحكاية الطويلة التي سيأتي اعتراض الذهبي عليها، ويجب أن يبقى اعتراضه ملازمًا لقراءتها. لا نختار افتتاحها لما فيه من معنى جميل ثم نترك ما يؤثر في تقويم نقلها. نحتفظ الآن بخريطة واضحة: كتاب يورد خبرًا، وخبر ينسب تجارة وعطاء، وقراءة تحتاج إلى فحص الطريق قبل أن تجعل تفاصيله مادة ثابتة لبناء السيرة.



موضع الاعتراض في سير أعلام النبلاء مهم لفهم ما نقرؤه. بعد إيراد الحكاية يصفها الذهبي بالنكارة، ويبين وجه اعتراضه: العيشي يرويها عن حماد بن سلمة وحماد بن زيد، وقد ماتا، بحسب نقده، قبل زمن القصة بمدة. فهو ينبه إلى علاقة زمنية بين الناقلين والواقعة المنقولة. لا يكفي أن نعجب بمضمون الخبر ثم نهمل هذا السؤال؛ إذ يحتاج نقل حادثة إلى طريق يسمح بوصول علمها، والتاريخ هنا جزء من فحص ذلك الطريق.

ثم يذكر الذهبي احتمال أن يكون العيشي قد أدرج ذلك. يجب أن نحفظ كلمة الاحتمال حين نشرح رأيه. فالإدراج المحتمل لا يجيز لنا أن ننسب إلى شخص تعمد الكذب، ولا أن نضع في فمه اعترافًا لم ينقله المصدر. كما لا يصح أن نبدل اعتراض الناقد بجملة واسعة تقول إن كل خبر عن تجارة ابن المبارك باطل. موضوع نقده هنا حكاية معينة وطريقها كما عرضهما، وعلى القارئ أن يقف عند هذا القدر حتى يجد دليلًا يسمح بزيادة الحكم أو تخصيصه.

وفي قراءة السيرة يمكننا ترتيب الأسئلة دون ادعاء الإجابة عنها كلها: ما الذي تنسبه الرواية؟ ومن ينقله؟ وما الاعتراض المذكور على هذا النقل؟ وأي جزء من الشرح أضافه القارئ؟ نفصل بهذه الأسئلة بين كلام الناقد وتفسيرنا له، وبين وجود الخبر وصحته. وقد تبقى مسائل تحتاج إلى بحث أوسع في التراجم والتواريخ وطرق الرواية. إبقاؤها مفتوحة يحفظ للعمل قيمته؛ فنحن نعرف الآن سبب التوقف، ونستطيع وصفه وصفًا محددًا، من غير اختراع نتيجة تسد موضع ما لم نتحقق منه.



نعود إلى لفظ صغير في أول الخبر: البز. تذكر المعاجم هذا اللفظ في معنى الثياب، وهو معنى يناسب سياق التجارة هنا. لكن شرح الكلمة لا يصف لنا متجرًا بعينه، ولا يكشف أسماء من اشترى أو باع. إذا عرفنا جنس المتاع فقد فهمنا كلمة، ولم نحصل بذلك على سجل تجاري كامل. ويمكن للشرح أن يبقى قصيرًا ودقيقًا، بدل أن يتحول إلى وصف مخازن وألوان أقمشة ومساومات لا يذكرها النص الذي بين أيدينا.

وفي رواية تاريخ بغداد ذكر للخروج بالتجارة إلى خراسان. ننقل هذا أيضًا بوصفه مما تقوله الرواية محل البحث، مع التحفظ الملازم لها. ولا نرسم منه طريقًا تفصيليًا يمر بمدن نختارها نحن، ولا نحدد وسيلة السفر ومواعيد الرحلات. فاسم جهة في

خبر لا يعطي وحده مسافات الطريق ومحطاته. وكذلك لا يبين لنا عدد العاملين أو طريقة حفظ البضاعة أو صيغة العقود. قد تكون هذه أسئلة نافعة للبحث، لكن نفع السؤال لا يجعل الإجابة المتخيلة جزءًا من التاريخ.

ويصوغ أصل مدارج تنبيهًا يخص هذه القراءة: لا يصح بناء نظام مالي كامل على رواية واحدة. نتعامل معه بوصفه تحليل مؤلف الأصل، لا اقتباسًا من كلام الذهبي. ومعناه هنا أن نضبط مقدار الاستنتاج، فنفرق بين لفظ ورد في خبر، وشرح لغوي له، وتصور واسع عن إدارة المال. لكل خطوة دليلها المطلوب، وقد يصلح مصدر لشرح كلمة ولا يصلح لإثبات واقعة. ومن ثم نختبر الإحالة نفسها: أي دعوى تسند، وأين تنتهي دلالتها، وما الذي لا يزال يحتاج إلى شاهد آخر؟

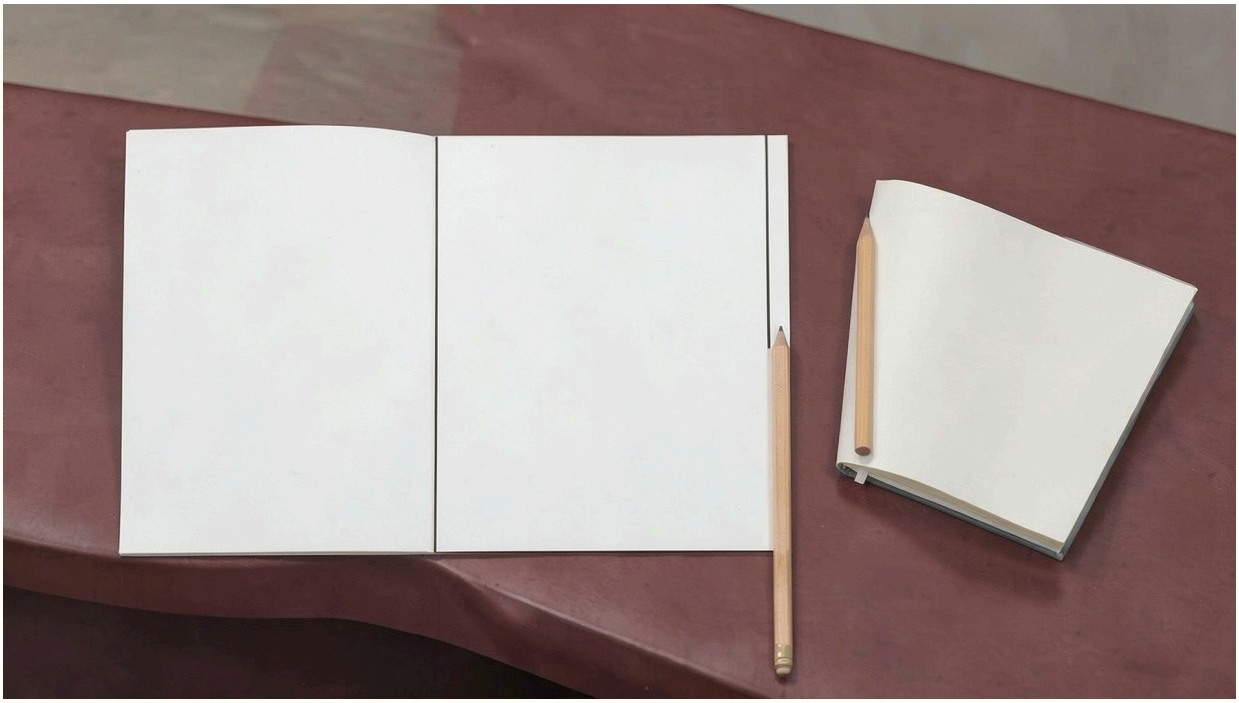


تأمل الآن الفرق بين ما ينسبه الخبر من مقصد، وما تستطيع إثباته من حساب. فالحكاية تربط التجارة بصلة أشخاص معينين. يمكننا وصف هذا الربط بوصفه معنى منسوبًا في الرواية، لكن لا نملك من ذلك وحده ميزانية تبين مقدار الربح، أو حصة كل

مستفيد، أو عدد مرات وصول المال. وحتى العبارة التي تصف صلة متكررة في الحكاية تظل جزءًا من الخبر الذي نبحث طريقه، ولا تتحول بتكرارها في شرحنا إلى واقعة محققة مستقلة عنه.

وفي أصل مدارج تنبيه آخر: شهرة المستفيد لا تقوي راويًا في السند، وحسن المقصد المنسوب لا يثبت مبلغًا ولا واقعة. هذا كلام تحليلي لمؤلف الأصل، نميزه من تعقيب الذهبي المحدد. فقد يستحسن القارئ معنى نفع الآخرين، ثم يحتاج مع ذلك إلى فحص الخبر الذي حمل هذا المعنى. ويمكنه أن يختار عملًا نافعًا في حياته بدليل مناسب، من غير أن يجعل اختياره الشخصي برهانًا على تفاصيل حكاية قديمة. فالمعنى الذي يستحسنه، والسؤال الذي يحققه، لا يؤديان الوظيفة نفسها في الاستدلال.

كذلك لا نستخرج من هذه الحكاية حكمًا عامًا على تولي القضاء أو على كل من تولاه. البحث في واقعة منقولة لا يغني عن الأدلة اللازمة لمسألة أوسع، ونقد طريقها لا يمنحنا علمًا بنفوس أصحابها. لذلك نحذف من شرحنا الدوافع التي لم ينص عليها مصدر متحقق، ونراجع الألفاظ التي تجعل المجهول معلومًا: دائمًا، وجميع، وبالتأكيد. قد تحتاج جملة إلى قيد صغير يعيدها إلى مقدار شاهدها. وإذا تغير بهذا القيد وقعها العاطفي، بقيت أمانة النقل أحق بالعناية من قوة الانطباع.



لنجرب الآن تطبيقًا معاصرًا على قراءتنا. افتح ورقة واجعل فيها ثلاثة أعمدة: العبارة التي سأكتبها، والشاهد الذي يسندها، والسؤال الباقي. اختر من النص دعوى واحدة فقط، ثم اكتب مرجعها بحيث تستطيع العودة إليه: اسم الكتاب والجزء والصفحة، مع تمييز صفحة ملف مدارج من صفحة المرجع الأصلي. ضع صيغة النسبة داخل العبارة نفسها إذا كان موضوعها خبرًا منقولًا لم نحسم ثبوته. هذا تمرين تقترحه القراءة لتجربه أنت الآن، فلا ننسب خطواته إلى أحد من رجال السيرة.

ابدأ مثلًا بعبارة تفيد أن تاريخ بغداد أورد حكاية تربط التجارة بصلة خمسة أشخاص. يسند الشاهد وجود هذا الكلام في الكتاب، ويبقى تقويم الحكاية مرتبطًا بنقد طريقها. ثم جرّب عبارة أخرى تزعم أننا عرفنا مقدار نصيب كل واحد؛ ستجد أن الصفحات المعينة لا تقدم ما يسند هذا المقدار، فتحذف الجزم وتحتفظ بالسؤال. وفي صف ثالث اكتب اعتراض الذهبي بحدوده، وأبق احتمال الإدراج احتمالًا. يمكن أن تترك خانة الإجابة فارغة إلى جوار شاهد معلوم؛ فالفراغ الصادق أوضح من رقم تضعه لتكتمل صورة الجدول.

اختم باختيار جملة واحدة من شرح كتبته أنت، وراجعها على ضوء الأعمدة. قد تضيف قيدًا، أو تصحح اتجاه العطاء، أو تستبدل إحالة لا تدل على الدعوى. سجل ما تغير وسبب تغييره، ثم حدد السؤال الذي يحتاج إلى بحث تالٍ. هكذا تكون نتيجة القراءة عملًا تستطيع مراجعته، لا انطباعًا يصعب فحصه. وقد تصبح حكاية تعرف حدودها أنفع لفهمك من صورة واسعة ملأتها التفاصيل المتخيلة. يبقى في يدك نص أمين لما وجدت، وسؤال محفوظ لما لم تجد، وطريق واضح لتتابع التعلم.

مصادر القراءة وحدودها

عبد الله بن المبارك: الصفحات الفعلية ٥٩–٦٢ من ملف مدارج، والمطبوعة ٥٨–٦١.

أصل الحكاية: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ط العلمية، ٦/٢٣٤–٢٣٥. موضع الرواية: app.turath.io/book/23764?page=2486.

اعتراض الذهبي واحتماله للإدراج: سير أعلام النبلاء، ط الرسالة، ٩/١١٧. موضع النقد: app.turath.io/book/10906?page=5783.

الشاهد اللغوي: الزبيدي، تاج العروس، مادة بزز، ١٥/٢٨. معنى اللفظ: app.turath.io/book/7030?page=7593.

الحكاية منقولة محل نقد؛ لا يثبت بإيرادها وقوع تفاصيلها. التنبيهات على حدود الاستنتاج المالي وشهرة المستفيد تحليل مؤلف أصل مدارج. نشاط الأعمدة تطبيق معاصر مقترح، ولا ينسب إلى رجال السيرة. الأشكال المصورة ترتيبات تعليمية معاصرة، ولا تمثل متاعًا تاريخيًا محققًا.